الحمار الشّرس

لم يعد أحدٌ في القرية إلا وقد تحدّث عن سالم صاحب الشوارب المعقوفة للأعلى، يلبس قمبازه المخطط بالبيض والأسود، وكوفيته التي يثنيها على رأسه، ويمسك علبة (الهيشة) ويبرم سيجارته التي ينفث دخانها إلى الأعلى، لتتناغم مع اتجاه شاربيه،ويحاولان الوصول إلى العلا، فيقول دائما: هاظ دخان نخب أول، وقطفة أولى، أهداني إياهم صاحبي من يعبد، وأهل يعبد مشهورين بالدّخان العربي، هم بزرعوه عندهم في سهلهم الواسع... ويتباهى دائما بعدد أولاده الكثيرين، فمن ضعُف عقلُه بحث عن الصغائر، والأولاد عند الكثيرين هم عزّ لردّ العدا، ولا عاقل يدري أي عدا يقصدون؟! أمرٌ لا يعلمه الله وهم. يحب دائماً أن يظهر بمظهر الزّعامة، ولو كلّفه ذلك الكثير من المال، الذي يحتاجه لتزويج أحد أبنائه الذي كبر.

يحبّ دائماً أن يظهر بمظهر الزّعامة؛ فالزّعامة في عالمه مهوى الفؤاد، لتزداد رفعته بين النّاس، وهو لا يملك ثقافةً أو علماً، ولم يقرأ يوماً كتاباً، رغم أنه كان يضع جريدة القدس تحت إبطه عندما يزور مدينة نابلس؛ ليشتري (مونة الدار) ويأكل

الكنافة النابلسية من البلدة القديمة، يعود إلى القرية، ويركب في المقعد الأمامي في الحافلة. ولم يسمع عن حضارةٍ، ولم يقدّم لها أمراً، ورغم ذلك فهو يشارك في كل حديثٍ يدور أمامه، وحتى أنه قبل أيام ذهب ليهنئ جاره العائد من البلاد الأجنبية بعد دراسته للفيزياء، ناقشه في الذّرة وحجمها، وكاد يجادله في نظرية أينشتاين، فهو يرغب أن يُنظر إليه أنه ذو شأنٍ وقيمة.

كان يملك حماراً قوياً، كأحد الثّروات التي لا يستغني عنها أي أحد في القرية، فهو بالنسبة له إيده ورجلوه؛ ليتناسب مع طبيعة الحياة التي يحياها، فالحمير كثيرة جداً، ولكن الأقوياء منها قليلة، وعادة الحمير أن تساق بكل يسر وسهولة، ولكنّ حماره شرسٌ جداً، هكذا دائما كان يقول للنّاس، رغم أنه يأكل الكثير من التّبن والشّعير ولا ينقصه شيئاً، وإطعامه يرهقه كثيراً رغم الغنى الذي يدّعيه ويفاخر به بين النّاس، ورغم ذلك تمسّك به سالم كثيراً، فهو يحرث أرض اليومين في يوم واحد، ورغم نصيحة العقلاء له من القرية ببيعه، لأنّه لا خير فيه والخطر منه قريب، رفض أن يبيعه أو يتخلى عنه، فهو يراه أقوى حمارٍ في البلد، لذلك فهو يعطيه جزءاً من المهابة، والكثير من النّاس يتمسك بالرّقم الأول مهما كانت دلالته، حتى وإن كان حماراً.

عاد سالم إلى البيت فوجد زوجته صفية تبكي وتنوح، فصاح بها:

-مالك يا إمرملي..شو في؟

-مني قتّلك ... هاظا الفاظل الجحش، بدناش إياه.

-ولك إحكي، وكعتي ركبي.

-راح ابنك يحطلوا أكل. ..قام ولّك في ظهروا ...لولا الجيران فزعوا عصياحوا، ولّا فقدنا القاروط.

-والله ما هو ظايل في هالدار.

فكّر كثيراً في الأمر، وأيقن أن وجود الحمار في مكان غير مكانه هو أمر مؤذٍ جدا للآخرين، وقد يطالبه أحد بتعويضٍ إذا عضّ أحد أبنائه ، وإذا رفس ولدا فقد يكسر رأسه، وهناك تقع الفاس في الراس، فلا بدّ من التخلّص منه كي يعيش أهل البيت بسلام وغنيمة، وقال: يا سالم اعمل مثل ما قال المثل: لا تنام في القبور ولا تحلم أحلام مزعجة.

ساق حماره مع ابنه وأخذ معه (بلطة) كي يقتله، وفي الطريق قال له شيخ الجامع بعد أن عرف بقصته: لو قتلنا كل جحش طماع وغدّار، الخير بزيد، والأمن بعم، والأرض بتصير خضرا.

وصلا إلى طرف القرية، قال لابنه:

-ارجع يا قاروط...بدك النّاس يقولوا سالم قتل جحشو بالبلطة...فش عندوا باروري.

-طيب يابا، مهو إحنا فش عنا بارودي... شو إنساوي؟

-بدبرها.

عمل جاهداً في اليوم الثاني حتى وصل إلى أحد الثّوار... وألّح عليه أن ينتظره في البيت، ويعطيه البندقية كي يقتل الحمار المتوحش.

فقال له الثائر: البنادق وجدت لتكون موجهة إلى صدور العدو، وليس إلى رأس حمار.

-بس ياعمي هذا الحمار، في من وراه خطر، مثل العدو، لازم يموت.

اقتنع الثائر بذلك وأعطاه البندقية. وأوصاه على الحرص الشديد عليها، فالبارودة رمز وعزّة، كما أنها خطر شديد في فلسطين منذ زمن طويل، والله وحده إلى متى ستبقى.

ساق الحمار إلى منطقه الإعدام التي تطلّ على هاويةٍ سحيقة، أمسك بندقيته وصوّب جيداً على الحمار، وأطلق الرّصاصة الأولى، مرّت من جانبه الأيمن، أطلق الرصاصة الثانية، مرّت من جانبه الأيسر، أطلق الثالثة، طارت إلى السّماء عالياً.

لقد فشل في المحاولات الثلاثة، ولم يكن يعرف أن الحمير لا تموت بسهولة، وأنها تتكاثر في زمن سريع في ظلّ غياب الأسود او حتى النّمور، وأن البنادق لا يحملها إلا من يقدّرها.

قال لابنه: قال لابنه: يظهر أن الحمير أعمارها طويلة...ادفع معي الحمار إلى الوادي، المهم أنهم سمعوا الصوت وعرفوا إنّو عنّا سلاح...

عاد إلى البيت وهو يشعر بنصر كفتح القدس، كيف ولا وقد سمع أهل القرية كلهم دوي الرصاص من سالم، وعرفوا انه قد اعدم الحمار؟! وأنه قتل عدواً شرساً، ولو أنه حماراً.

قال له جاره الحكيم بعد عودته: راح حمارك يا سالم، وظل في هالبلد ألف حمار... البلد مليانة حمير، خلصنا من واحد، وشو بدنا نعمل في إلي ظايلات؟؟؟ ....